

فصول مختصة في الفلسفة الألمانية

١١ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

- ٢ -

وهناك علاقته مع المرأة تبدى ناحية من نواحي نفسه ، فقد زعم أناس أن نيتشه كان يذهب مع المرأة مذهب معلمه « شوبنهاور » كاره المرأة ، ويستشهدون على ذلك بقوله : « أيها الذهاب إلى المرأة ! لا تنس عصاك وسوطك » ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المدقق في تعاليم نيتشه ، فالمرأة التي طمئنت نيتشه في الصميم هي المرأة المترجلة التي تريد أن تراحم الرجل في علمه وجهاده واقتصاده ، أما غير هذه المرأة فهو مقدر لها محترم لفضلها ، مقدس لمعنى المرأة فيها ؛ ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات فضليات ، وهو - وإن لم يتذوق من امرأة ذلك الهوى العاصف والحب اللامع فقد تذوق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة . وقد ذكرت شقيقته في مذكراتها « ان أباها كان يجهل الحب العاصف . . . وإنما كان همه الشاغل له التفطيش عن الحقيقة » . على أن هذا الفيلسوف السيم « المنطوى على نفسه » الذي لم يستسلم للأهواء المصطنحة والميول المنهية ، قد تذوق في أيام نكته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل . . . فهو صاحب مثل أعلى في الحب كما كان في الصداقة

وهناك نشأته المدرسية فقد دلت على طبعه « الارستقراطي » الذي ينفر من كل شيء مبتذل شائع ، ولا يميل إلا إلى كل جميل لامع ، وطبعه هذا هو الذي حمل على اعتزال رفاقه الذين يدرسون معه ، وذوقه هذا الجائح إلى محبة الأشكال الجميلة هفاه إلى عشق الجمال القديم وحب المبقرية الفرنسية النابذة والحاضرة . ونفوره هذا من السوق والعاملة جعله ينفر من المسيحية ، ويصفها ويصف أصحابها ورسولها وصفاً قاسياً ، ويكره كل البادئ التي تبشرها الديمقراطية والانسانية الاشتراكية . وكل تعاليمه الأخلاقية إنما تؤول إلى هذه الغاية : « هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة ؟ » ولعل نيتشه كان يُثبِّل نفسه الجبارة في هذه الكلمة التي يرددها « زرادشت » حين يقول :

(تسالونى لماذا؟ أنا لستُ ممن يُسالون حين يعملون لماذا؟) وهذه صفة نفس لا تمتد إلا على إرادتها ، تحتمل الألم وتصدمه ثم تهزمه ، وتقابل القدر وتعلن سيادتها عليه

أطوار هيئاته

كان هوى نيتشه الراسخ في صدره هو الشعور على الحقيقة ، فلننظر أية طريق ركب إليها ، وما هي الدوافع التي هيمنت عليه ؟ كان نيتشه يمت بنسب قوى إلى أسرة مفرقة في دينها ، متشددة متمسبة ، مع ميل إلى الدراسة العلمية ، قرن والده العلم إلى الدين ؛ وما كان نيتشه أن يبدل هذا السبيل الذى اختاره له والده واختارته طبيعته ، وقد عرفه أصدقاء حدائمه مغالياً في دينه وفي تقواه ، ولا يحب إذا أطلقوا عليه - وهو في السادسة من عمره - اسم العابد الصغير ؛ حتى إذا ما أتم دراسته الأولى خرج إلى الحياة وهو لا يزال يفكر في ربه ، ولا يكفر بنعمته ، ولا ييجحد وجوده . وماهى إلا أعوام كرت حتى أخذ يرآب في الدين اللاسق للعلم ، لأن ما فى الدين من إيمان لا يلائم في رأيه ما فى العلم من حرية وانطلاق ؛ وهو عندما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ متوخياً الحقيقة من وراء دراساته يجد في عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقاً حرّاً لا يستره شيء . ومنذ ذلك الحين بدأ يطعم في الحقيقة العلمية التي يقنن أثرها فكره الضائع دون أن يفقد الله الساكن في أحشاء صدره . ولكن ناشد الحقيقة العلمية لا يتسنى له أن يوفق زمناً طويلاً بين حقيقته المنشودة وبين إيمانه الموروث . فهما حقيقتان متضادتان ، إذا تلاهما في أول الطريق فتراعهما حقيق في وسطه ، وإذا توافقتا في وسطه فالخلاف ناشب في منتهاه . وها هو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ، ويكتب عام ١٨٦٢ تجربة فلسفية على القدر والتاريخ ، يتحدثنا أنه قاس بعقله « أوقيانوس الأفكار الواسع ، وهم بأن يجازف بنفسه في بحر الشك ، ولكنه وجد أن مجازفة مثل روحه الضعيفة تجاربهها ضرب من الجنون ، وهى لا تملك عدة ، ولا تحمل سلاحاً » ومنذ تلك اللحظة ألقى أن الديانة المسيحية مبنية على افتراضات وهمية . أما وجود الله والخلود والوحى فسابق جميعها مسائل لاحل لها . (إنتى جربت أن أكفر بكل هذا ، وما أيسر الهدم ! ولكن الهدم يستلزم البناء . . . على أن الهدم والتخريب هما أصعب مما تمثله عقولنا ، فنحن في الحقيقة لانعش لأنفسنا ولا نملك أنفسنا وفقاً علينا . فهناك أوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا ، وهناك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا ، وكلها

لها ، ولم يمد يستسلم لذلك القدر الذي يذهب بحياتنا ما يشاء ، ولا لتلك الارادة الآسمة التي تود أن تهدينا إلى سبيل النجاة والسلام بحث « نيتشه » جميع الأديان والشرائع منذ المصور الأولى والمذاهب التي نزلت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . وبعد أن شكك في هذه المذاهب وارتاب في حقائقها وأغرق في الانكار عاد إلى هذه الفكرة التي قالها جازماً ، وزعم أنه بهذه الفكرة حل مسألة الوجود : « ألا إن الآلهة جيمهم قد ماتوا ! والآن نريد أن يحيا الانسان الكامل : السوبرمان » ، وهكذا أضع نيتشه لآلهه ووجد نفسه

بحث الناقدون كثيراً في فكرة نيتشه التي كانت تتطور وتتبدل تباعاً لما يحيط بحياته . وهو قبل بلوغه هذا المرفأ خاض بحاراً كثيرة وجاز شواطئ كثيرة . وقد أدرك بذاته تطور ذاته فشبّه نفسه بالأفئ التي تنسلخ من جلدها أو النسر الذي ينسل ريشه . والحياة - عنده - ليست بواجب يُبقي ولا بعمل يُفرض ولا بوم يُحسب ، وإنما هي مادة شأنها شأن المواد التي تقع بين يدي الباحث . وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء . همه التنقل تهذيب انكساراته كما تهذيب انتصاراته ، أو كالقافز بين الصخور يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة . وهو - بلا كل ولا فتور - يصعد من طائر إلى أعلى ، ومن قمة إلى قمة ، مبدلاً كل لحظة أفعه ، تازماً على ألا يقف أبداً ولا ينشئ أبداً . رداؤه الشجاعة والصرامة ، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية . ولا يجزع من المزلّة التي يتنفس فيها ربح الثلج النهمر . . . هو دائماً في صعود وارتقاء . وهكذا يعتقد نيتشه الذي فهم الحياة أنها تفوق بعضها على بعض ؛ يعتقد أن التطور لا غنى عنه ، ولا بد منه لأنه مادة ضرورية في تحول الحياة . يعتقد نيتشه ذلك ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذي اعتقد به ، وقد كان توفيقاً كاملاً وكان تلاؤماً كاملاً ، وصارت مسأله في الحياة هذه المسألة : « ما عسى يكون عندي معنى الحياة إذا لم يكن لآله ؟ » ويحيب على هذه المسألة بهذه الكلمة : « إن اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا في السماء . إن الحب الأكبر هو جوهر ضروري وجوده في كل مسائل الوجود الكبرى . وهذا الحب وحده جدير بالأرواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ . هنالك فرق كبير بين الفكر الذي يقابل مسائل الوجود بشخصيته ، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته ، وبين الفكر الذي يتوجه إليها مجرداً عن شخصيته ،

عوامل مترابطة متلاحمة لايسهل على العقل أن يخترق سياجها ، ولا يمكن للمنطق أن يقوم أعوجاجها إن قوة العادة التوارثية ، وتسامينا إلى الكمال ، وانفصالنا عن العالم الحالى ، وحل كل عقد المجتمع ، والشك في حقائق الوجود ، كلها نوازع تتنازعنا وتعلك علينا إرادتنا ، والتكبات المفجعة ، والتجارب المؤلمة ، هي التي تسوق قلوبنا إلى الايمان الذي ولد مع طفولتنا ، وصاحب حدائتنا)

وبعد ثلاثة أعوام ألقينا « نيتشه » بخطوة خطوته الأخيرة ، ويملن أن الانسان بين حالين لا ثالث لهما : فهو إما أن ينتخب الايمان وما في الايمان من هدوء ووقار واستقرار ، وإما أن يعيش على طريق مخوفة بالأخطار : هي طريق الباحثين عن الحقيقة ، الذين لا يتخذون الهدوء والسكينة مآرباً لهم ، وإنما يجدون مأربهم في نشدان الحقيقة . يعيش الباحث منهم وحده مضطرب النفس قلق الضمير ، ممزق القلب ، نحو ضالته المقصودة ، نحو ما يتجلى له من حق وجمال وخير ، وهو إذا غادر طريق الباحثين ورضى لنفسه ذلك الهدوء فقد قتل البطولة في نفسه ، وحكم على رجولته بالموت

انفصل « نيتشه » عن المسيحية التي كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشيء رمزي قائم على قواعد رمزية ، شأن الحقائق السامية تكون رموزاً لحقائق أسمى منها وأعلى . وظل يدرك خطر العمل الذي أقدم عليه ، ويتكلم في كل فصوله « عن موت الآله » كأن موته - عنده - حادث عظيم في تاريخ البشرية أو عمل نفذ اليوم أوله والأجيال الآتية ستتممه . ولكن « نيتشه » أعدم هذا الآله ليعتد لآله الحقيقة . « هذا الآله (الأدبي) ، قد مات ليعيش الآله العلمى » وهكذا حمل حنينه الهاجع في أحناء نفسه للدين إلى الايمان بالآله الحقيقة . وعند ما وجد نفسه يتنازعها إلهان سلطانهما نافذ : الآله الذي ورثه ، والآله الذي لقيه ، رأى أن يضحي بالأول ويبقى على الثاني . وهذا الآله هو الذي يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه ، ولم يمش مع إلهه هذا كما يمش أولئك مع آلهتهم مستسلمين قاننين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين ، فهو يهب عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الايمان بذلك الآله الأول ، وهو - الآن - لم يمد يؤمن بنظام الطبيعة ولا بجبالها ولا يعيل إلى محاسنها ، ولم يمد يرى في صفحات التاريخ ذلك القضاء الآسهي والنظام الساموي اللذين يقودان الانسانية إلى مراتبها التي خلقت